

خطبة الجمعة - الخطبة ٤٤١ : خ ١ - الدروس وال عبر المستفادة من الهجرة ، خ ٢ - الطفل المضطهد.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٣-٠٦-١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله، وما توفيقي ولا اعتصامي ولا توكلني إلا على الله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إقراراً بربوبيته، وإرغاماً لمن جحد به وكفر. وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، رسول الله سيدُ الخلق، وبالبشر، ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

إثبات الهجرة النبوية أن حجم الإنسان بحجم عمله :

أيها الأخوة المؤمنون... بعد أيام قليلة تُطل علينا ذكرى هجرة النبي عليه الصلاة والسلام، وكلكم يعلم وقائع الهجرة، فما من مناسبة دينية تُلقي فيها كلمات في موضوع الهجرة إلا وفيها وقائع الهجرة تأتي تباعاً وبتفصيلات شديدة. ولكن أردت أن تكون هذه الخطبة عن الدروس وال عبر، وعن الاستنباطات التي يمكن أن نستفيد منها من حدث الهجرة، الذي يأتي في الأهمية بعد حدث بعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الأخوة الأكارم... لقد كانت الهجرة بداية التاريخ، ولم يكن ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام بداية التاريخ، وفي هذا معنى دقيق وهو أن حجم الإنسان بحجم عمله..

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَائِتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾

[سورة الأنفال: ٧٢]

الله سبحانه وتعالى لا يقرب العبد، ولا يسمو به إلا إذا جاء عمله مصداقاً لقوله، فالذي يؤمن بالله عز وجل من دون أن يلتزم بأمر، أو ينتهي عن نهي، هذا ماذا فعل؟ الجواب ما فعل شيئاً، لأنه آمن بالله عز وجل؛ والله موجود، واحد، وكامل، آمنت أم لم تؤمن، أقررت أم لم تقر، ولكن الإيمان أيها الأخوة ليس هدفاً بذاته إنه وسيلة للعمل الصالح، والعمل الصالح سبب دخول الجنة، وليس ثمناً للجنة، إذاً كان التاريخ الهجري مبنياً على هجرة النبي عليه الصلاة والسلام لنسبيط من ذلك أن الإنسان ما لم يكن له موقف، التزام، ائتمار، انتهاء، بذل، عطاء فلن يرقى في سلم الإيمان.

أيها الأخوة الأكارم... ليس الإسلام فناءٌ وفِي لَأَ، إنه قيامٌ والتزامٌ، ليس الإسلام ثقافةً واطلاعاً، إنه إذعانٌ واستسلامٌ، فالهجرة التي هاجرها النبي عليه الصلاة والسلام عبرت عن موقفٍ، عبرت عن إيثاره للحق.

الحديث عن الهجرة شيءٌ والهجرة شيءٌ آخر :

أيها الأخوة الكرام... الحديث عن الهجرة شيءٌ والهجرة شيءٌ آخر. الحديث عن الهجرة ربما كان ممتعناً، ولكن أن تُقتلَّ من جذورك، وأن تذهب إلى بلدٍ بعيد ليس فيه لك أرض، وليس فيه لك منزل، وليس فيه لك انصار، إن ممارسة الهجرة شيءٌ آخر غير الحديث عن الهجرة وعن وقائعها. سيدنا إبراهيم على سبيل المثال حينما أمرَ أن يذبح ابنه، أن تقرأ أنت الآيات، وأن تترنم بها، وأن تُشيد بهذا النبي الكريم، وهذه التضحيَّة الكبيرة هذا شيءٌ، وأن تعاني أمراً إلهياً ينصبُ على ذبح ابنك شيءٌ آخر.

والهجرة كذلك، أن تتحدث عن الهجرة، وعن فضل النبي عليه الصلاة والسلام، وعن إيثاره، وعن جهاده، وعن تحمله هذا شيءٌ، ولكن معاناة الهجرة شيءٌ آخر، لقول الله عزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْتُ عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوكُمْ إِلَّا قَيْلَ مِنْهُمْ﴾

[سورة النساء: ٦٦]

والشيء الذي يؤكد ذلك أنَّ الذين يضطرون أن يغادروا بلادهم، وأن يهيموا على وجوههم في العراء، في أيام البرد الشديد، أو في أيام الحر الشديد، إن هؤلاء يعانون ما يعانون، وليس سماع أخبارهم كمعاناتهم، شيءٌ كبير! فلذلك الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((نو أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مُّثُلَ أَحَدِ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُّدَّ أَحَدُهُمْ وَلَا نَصِيفَه))

[السنة لابن أبي العاص عن أبي سعيد الخدري]

معركة الحق مع الباطل معركة أزلية أبدية :

شيءٌ آخر في الهجرة هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما بعثه الله للعرب، وللناس جميعاً، بشيراً ونديراً ماذا فعل؟ كل قومه يعلمون أمانته، ويعلمون صدقه، ويعلمون عفافه، ويعلمون استقامته، ويعلمون أصله، إلى ماذا دعاهم؟ دعاهم إلى عبادة الله عزَّ وجَلَّ، ماذا فعل حتى يأتموها على قتلها؟ حتى يخرجوه من دياره؟ حتى ينكلوها بأصحابه؟ ما الذي فعله؟ ألم يقل سيدنا جعفر رضي الله عنه للنجاشي حينما سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال:

((أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله عزَّ وجلَّ لتوحده، ونبعده، ونخلع

ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء))

[الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة أم المؤمنين]

هذا السؤال الكبير: لماذا العِداء؟ لماذا هَبَّ زعماء قريش يحاربون النبي عليه الصلاة والسلام؟ لماذا ائتمروا على قتله؟ لماذا كادوا له؟ لماذا أخرجوه؟ لماذا نَكَلُوا بأصحابه؟ الجواب أيها الأخوة إنها معركة أزلية أبدية، إنها معركة الحق مع الباطل، هكذا الحق، وهكذا الباطل، دائمًا الباطل يريد أن يطفئ الحق، الباطل يريد أن يقهر الحق، إنها معركة أزلية أبدية معركة الحق بالباطل.

الابتلاء سر وجود الإنسان على هذه الأرض :

هناك سؤال آخر: لماذا لم يخلق الله النبي وأصحابه في أرض ليس فيها كفارٌ إطلاقاً، فاستراحوا من المعارضة، والكيد، والتنكيل، والإخراج وما إلى ذلك؟
الجواب عن هذا السؤال: إنه الابتلاء، إن سر وجودك في هذه الأرض أنك مُبتلى..
﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَدِئِينَ﴾

[سورة المؤمنون: ٣٠]

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

[سورة الملك: ٢]

إنك آمنت بالله، كيف ترقى إلى الله؟ لا ترقى إلى الله إلا بالصبر، إلا بالمجاهدة، إلا بتحمّل الأذى، إلا ببذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، إن هذه الصعوبات التي تنشأ من احتكاك الكُفار مع المؤمنين، ومن تأمر الكفار على المؤمنين، ومن التضييق عليهم، ومن التنكيل بهم، ومن إخراجهم من بلادهم، إن هذا كلّه هو ثمن الجنة الأبدية، هو ثمن العطاء، هو ثمن القرب من الله عزّ وجلّ.

يا أيها الأخوة الأكارم... حينما حاصر كُفار قريش ومعهم الأحزاب جميعاً المدينة المنورة، وأرادوا أن يستأصلوا المسلمين، ليست معركة تنتهي بنصرٍ وهزيمة، إنها معركة استئصال، معركة إبادة، أراد الأحزاب، وأرادت قريش، وأراد اليهود الذين جاوروا النبي عليه الصلاة والسلام أن يستأصلوا شافة هذا الدين عن آخره..

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَكُمْ وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزاً أَشَدَّدَا﴾

[سورة الأحزاب : ١٠-١١]

إنه الابتلاء، إذاً أية متابع تعانيها من أهل الكفر والإعراض ومن أهل الدنيا؟ إنها متابع ترقى بك إلى الله، وتؤكد صدقك، فرجل يقول:

﴿ مَا وَعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

[سورة الأحزاب: ١٢]

ورجل يقول: أبعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيسرو وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟!

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

[سورة الأحزاب: ٢٣]

إنه الابتلاء، شتان بين الموقفين، موقف التخاذل، موقف الضعف، موقف الشك، موقف الارتياب، وبين موقف النصر والتأييد واليقين..

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

[سورة الأحزاب: ٢٣]

موقفان متناقضان هما بيانٌ موضّح لحقيقة الابتلاء :

نعييم بن مسعود رضي الله عنه، كان قد أتى مع الأحزاب ليقاتل النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أُوتى هذا الصحابي عقلاً راجحاً، ففي ذات ليلةٍ من ليالي الحصار - حصار الكفار المسلمين - الذي دام قرابةً من عشرين يوماً، لجأ النبي عليه الصلاة والسلام إلى الله جل جلاله، وجعل يدعوه دعاء المضطّر ويكرر في دعائه:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشَدْتُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ))

[مختصر تفسير ابن كثير عن ابن عباس]

ونعييم بن مسعود في تلك الليلة كان يتقلب على مهاده أرقاً، كأنما سرّ جفناه، مما ينطبقان لنوم، فجعل يسرّح ببصره وراء النجوم السابحة على صفحة السماء الصافية، ويخاطب نفسه ويقول: "ويحك يا نعيم.. ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة في نجدٍ لحرب هذا الرجل ومن معه؟ إنك يا نعيم لا تحاربه انتصاراً لحق مسلوب، أو حميّة لعرضٍ مغصوب، وإنما جئت تحاربه لغير سبب معروف؟".

لحظة تفكير واحدة، إعمال العقل مرةً واحدة، التأمل. أكثر الناس إليها الأخوة يتحرّكون بلا سبب واضح، وبلا هدفٍ واضح، مع الأكثريّة ولو كانوا على باطل، وضدّ أهل الحق ولو كانوا على الحق، لماذا تُعادي؟ لا يعرف، لماذا تقف مع هؤلاء؟ لا يعرف، لماذا تقف هذا الموقف؟ لا يعرف، أين عقلك؟ أين عقل الإنسان؟ أين تفكيره؟

هذا الصحابي الحليل كان مشركاً، وقد جاء مع قومه ليحارب النبي، وفي لحظة من لحظات الصفاء أعمل عقله، وأجرى هذه المحاكمة المنطقية، "ويحك يا نعيم إنك لا تحاربه انتصاراً لحق مسلوب، أو حميّة لعرضٍ مغصوب، إنما جئت تحاربه لغير سبب معروف ، أليق برجلٍ له عقلٌ

مثل عقلك أن يقاتل أو يقتل لغير سبب؟ ويحك يا نعيم! ما الذي يجعلك تُشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؟".

صلاحه ظاهر، دعوته إلى الخير، دعوته تتوافق العقل، تتوافق المنطق، تتوافق الفطرة، تتوافق الواقع: "ويحك يا نعيم ما الذي يجعلك تُشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؟ ما الذي يحملك يا نعيم على أن تغمض روحك في دماء أصحابه الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق؟". ولم يحسم هذا الحوار العنيد بين نعيم وبين نفسه إلا قراره الحازم، الذي نهض من توه لتنفيذها، تسلل نعيم بن مسعود من معسكر قومه، تحت جنح الظلام، ومضى يحيث الخطأ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رأه النبي ماثلاً بين يديه قال: "نعم بن مسعود؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ قال: جئت لأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله، وأن ما جئت به حق".

والقصة لها تتمة طويلة، وقد أجرى الله النصر في هذه المعركة المصيرية على يد هذا الصحابي الجليل، بحكمته، وحنكته، ودهائه، وكيف أنه وظف عقله في خدمة المسلمين.

الآن نحتاج اليوم أيها الأخوة إلى ساعة صفاء؟ إلى لحظة تأمل؟ إلى إعمال عقل؟ لم لا أشمر وأسعى إلى الله عزّ وجل؟ لم لا أصلح مع الله؟ لم لا أتوب من كل الذنوب؟ لم لا أصلح بيتي؟ لم لا أضبط بيتي الذي هو بإمرتي؟ لا يكفل المسلم أن يمنع قوى الشر أن تتمتع عن إذاء المسلمين، هذا ليس في قدرته، ولكنك مكلف أن تجعل من بيتك إسلامياً، ومن عملك إسلامياً، إذا فعلت ذلك فقد أديت ما عليك، وحققت رسالة الله في هذه الأسرة الصغيرة، وفي هذا العمل الصغير.

أيها الأخوة الأكارم... معركة الحق بالباطل معركة أبدية، ماذا كان بعد هذا الابتلاء؟ هذه المعركة بين الحق والباطل إنما هي ابتلاء من الله عزّ وجل، هؤلاء الذين عارضوا النبي، هؤلاء الذين كادوا له، هؤلاء الذين ائتمروا على قتله، هؤلاء الذين أخرجوه، أين هم؟ ناداهم النبي عليه الصلاة والسلام بأسمائهم واحداً واحداً، قال:

((يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني رببي حقاً! لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وأواني الناس، وقاتلتتموني ونصرني الناس، قالوا: يا رسول الله هل يسمعون ما تقول؟ قال: ما أنت بأسمع لما أقول منهم ولكنهم اليوم لا يجيرون))

[مجمع الزوائد عن ابن مسعود]

أما هؤلاء الذين نصروا النبي، وقفوا معه، جاهدوا معه، بذلوا الغالي والرخيص، بذلوا النفس والنفيس، أعملوا عقولهم، استجابوا لنداء فطرتهم، وضعوا كل إمكاناتهم في خدمة الحق، فماذا كانت النتيجة؟ قال الله عزّ وجل مشيراً إلى فضلهم، وإلى إخلاصهم، وإلى مكانتهم:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْبِونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِمَّا أُتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةً﴾

[سورة الحشر: ٩]

من أروع المواقف التي وقفها الأنصار مع النبي عليه الصلاة والسلام موقف سيدنا سعد بن معاذ، سيد الأنصار، حينما سأله النبي عليه الصلاة والسلام عشيّة معركة بدر، أراد استماع رأيه، أراد أن يرى موقفه وموقف الأنصار، فقال: " يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك، وشهادنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فلمض يا رسول الله لما أردت فتحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخطّته لخضناه معك ما تختلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصُّرُّ في الحرب، صُّدُّقْ عِنْدَ الْلَّقَاءِ، فصل حبال من شئت، وقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطينا ما شئت، وما أخذت من أموالنا كان أحب إلينا مما تركت، فلعل الله يُرِيكَ مَنْا مَا تَقْرُّ بِهِ عَيْنَكِ " هذان الموقفان المتتقاضان إنما هما بيانٌ موضحٌ لحقيقة الابتلاء، نحن مبتلونٌ فإما أن نقف مع الحق فنسعد إلى أبد الآدين، وإما أن نضعف، وأن ندعم الباطل، فنهلك في الدنيا ونشقى في الآخرة.

الاقتداء بالنبي في الأخذ بالأسباب و التوكل على الله :

أيها الأخوة الأكارم... شيء آخر: ماذا تعليمنا الهجرة؟ تعلمونا الهجرة أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق، هو الذي وعده الله بالنصر، ما من رجلٍ على وجه الأرض أَجْدَرُ بالنصر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع كل ذلك؛ مع أنه نبي، ومع أنه موعودٌ بالنصر، ومع أن الله معه، ومع كل ذلك أخذ بكل الأسباب، وما توكل على الله إلا بعد أن أخذ بالأسباب.

وهذا درسٌ بلغ ي ينبغي أن يضعه المسلمون نصبَ أعينهم، فإذا تركوا الأسباب فقد عصوا، كيف عصوا؟ لأنهم ما عبوا بهذا النظام الدقيق الذي وضعه الله للناس كافة، إن لم تأخذ بالأسباب وبالسببيات، إن لم تأخذ بهذه القوانين، إن لم تحترم هذه النظم، إن لم ترع هذه السنن، فأنت لا تملك الإيمان الكامل. من ترك الأخذ بالأسباب فقد عصى.

وأما المُنْزَلُ الآخر الذي يقع به أهل الدنيا اليوم فهو أنهم يأخذون بالأسباب بشكل جيد، ولكنهم يؤلهونها ويعتمدون عليها، فالمؤمن بين أن يدع الأسباب فيعصي ربِّه، وبين أن يأخذها ويعتمد عليها فيشرك بربيه. لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بكل الأسباب، اختار الطريق المناسب، واختار خبير الطريق المناسب، واختار رجلاً لمحو الآثار، واختار آخر لتقصي الأخبار، واختار ثالثاً لتتبع حركات العدو، وما ترك ثُغْرَةً إِلَّا وسَدَّهَا، ولا شيئاً إِلَّا وأغلقه، وبعد ذلك توكل على الله. فلما وصل الكفار إلى غار ثور كان النبي عليه الصلاة والسلام كالطود الشامخ.. قال: " يا

رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطن قدمه لرأى، قال: " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟
قال: يا رسول الله لقد رأينا ، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:
﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾

[الجامع لأحكام القرآن]

إذاً عليك أن تقتندي بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأن تأخذ بالأسباب، وأن تتوكل على الله، وأي شيء يأتيك بعد ذلك فهو قضاء وقدر، أنت مستسلم له، لكن الذي تأتيه الشدائـد لأنـه ترك الأخذ بالأسباب، ينبغي أن يسمـي هذه الشدائـد "جزاء التقصير". أما ما يقوله بعض أخوتـنا الكرام من أن سيدنا عمر رضـي الله عنه حينما هاجر هاجر علـانية، وتحـدى كفار قريـش، ولم يعبـا بهـم، ولم يفعلـ كما فعلـ النبي !! فالجواب واضح وضـوح الشمس: إنـ عمر بن الخطـاب رضـي الله عنه ليس مـشرـعاً، إنه يـمثل نفسه فقط، فإنـ أصابـ أصابـ، وإنـ أخطـ أخطـ، لكنـ النبي عليه الصلاة والسلام كان مـشرـعاً، فـلو أنه اقـتحـمـ الأـخـطـارـ، ولمـ يـأخذـ بالـاسـبـابـ لـعـدـ اقـتحـامـ الأـخـطـارـ سـنةـ، ولـعـدـ الأـخـذـ بالـاسـبـابـ معـصـيـةـ، إـذاـ لـهـلـكتـ أـمـتهـ منـ بـعـدـهـ.

الهـجـرةـ موقفـ نفسـيـ :

أـيـهاـ الأـخـوةـ الـكـرـامـ...ـ الـهـجـرةـ مـوـقـفـ نفسـيـ،ـ ربـماـ كـانـ الإـنـسـانـ فـيـ بـلـادـ الـمـسـلـمـينـ،ـ لـكـنهـ يـهـوـيـ بـلـادـ الـكـفـرـ،ـ وـيـتـمـنـيـ أـنـ يـعـيـشـ مـعـهـمـ،ـ وـيـذـوـبـ نـفـسـهـ حـسـرـاتـ لـأـنـهـ لـمـ يـتـمـكـنـ مـنـ أـنـ يـسـافـرـ إـلـىـ بـلـادـهـ،ـ هـذـاـ كـأـنـهـ تـرـكـ بـلـادـهـ إـلـىـ بـلـادـ الـكـفـرـ،ـ مـنـ غـابـ عـنـ مـعـصـيـةـ فـرـضـيـهاـ كـانـ كـمـ شـهـدـهاـ،ـ وـمـنـ شـهـدـ مـعـصـيـةـ فـأـنـكـرـهـاـ كـانـ كـمـ غـابـ عـنـهـاـ.ـ فـلـذـاكـ الـهـجـرةـ فـيـ أـصـلـهـاـ مـوـقـفـ نفسـيـ،ـ فـمـنـ أـرـادـ بـالـهـجـرةـ اللهـ وـرـسـولـهـ،ـ كـانـ مـخـلـصـاـ،ـ وـمـنـ أـرـادـ دـنـيـاـ يـصـبـيـهاـ أوـ اـمـرـأـ يـنـكـحـهـاـ فـهـجـرـتـهـ إـلـىـ مـاـ هـاجـرـ إـلـيـهـ.

حـقـيقـةـ الـهـجـرةـ :

وـالـحـقـيقـةـ الثـانـيـةـ يـاـ أـيـهاـ الأـخـوةـ أـنـ بـابـ الـهـجـرةـ الـذـيـ كـانـ مـفـتوـحاـ فـيـ عـهـدـ النـبـيـ بـيـنـ مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ،ـ أـغـلـقـ بـعـدـ الفـتـحـ،ـ فـقـدـ قـالـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ:

((لا هـجـرةـ بـعـدـ الفـتـحـ))

[منقـقـ عـلـيـهـ عـنـ ابنـ عـباسـ]

ولـكـ بـابـ الـهـجـرةـ مـفـتوـحـ بـيـنـ كـلـ مـدـيـنـتـيـنـ يـشـبـهـانـ مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ فـيـ عـهـدـ النـبـيـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ.ـ وـالـمـعـنـىـ الـأـعـمـ وـالـأـشـمـلـ لـالـهـجـرةـ أـنـ حـقـيقـةـ الـهـجـرةـ هـيـ هـجـرةـ الـمـعـصـيـةـ إـلـىـ الطـاعـةـ.ـ لـذـاكـ قـالـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ فـيـمـاـ يـرـوـيـهـ عـنـ رـبـهـ فـيـ الـحـدـيـثـ الـقـدـسـيـ:

((العـبـادـةـ فـيـ الـهـرـجـ -ـ أـيـ فـيـ زـمـنـ الـهـجـرةـ -ـ كـهـجـرـةـ إـلـيـ))

[الجامع الصغير عن معلـى بنـ يـسـارـ]

أيْ إذا رأيت النساء في الطريق كاسياتٍ عارياتٍ، مائلاتٍ مُمِيلاتٍ، رؤوسهن كأسنة البحت، فالعنوهن لأنهن ملعونات، إذا رأيت الطُّرُقات وقد اشتعلت فيها الفتَن، فعبادة الله في هذا الزمان كهجرةٍ إلى الله عزَّ وجلَّ.

أيها الأخوة الكرام... هناك من يسلُك سلوكاً آخر، من يهاجر هجرةً عكسيةً، حينما تكون الهجرة أيها الأخوة ابتغاء دنيا يصيّبها الرجل، أو ابتغاء مالٍ وفيه يُحَصِّلُهُ، وحينما تكون الهجرة بذلاً للخيرات، بذلاً للطاقات فهي هجرة في سبيل الله. أما حينما تكون الهجرة هروباً من تحمل المسؤولية، وفراراً من البذل والتضحية، وحينما تكون الهجرة إضعافاً للمسلمين وتقويةً لأعدائهم، حينما تكون الهجرة تمكيناً للعدو من احتلال الأرض واستثمار خيراتها، حينما تكون الهجرة من بذلٍ تُقام فيه شعائر الدين إلى بلد آخر فرَغَت منه كل القيم، حينما تكون الهجرة كذلك فهي هجرة في سبيل الشيطان. يذهب إلى بلاد الغرب فيتحدث حديثاً شجياً عن المباني، وعن الحدائق، وعن وسائل المواصلات، وعن وسائل التسلية، وعن البلد الخضراء، وعما فيها من مُتعٍ ومباهج، فيقيم هناك، ثم يكتشف أن ابنته لها صاحب، وأن هذا الصاحب بلَغَ منها كل شيء، وأن ابنه اعتنق فكرة إلحادية بتأثير البيئة، حينما يكتشف بعد فوات الأوان أنه ضيع أولاده، عندئذٍ يدفع ثمن هذه الهجرة التي كانت في سبيل الشيطان باهظاً.

يا أيها الأخوة الكرام... أخوةٌ كثيرون عادوا إلى بلدتهم في الوقت المناسب، وأولادهم صغار، حفظوا أولادهم، حفظوا بناتهم، حفظوا أهلهم، ما من شيءٍ يُسْعِدُ الأبَ كأن يرى ابنه صالحاً، وابنته مؤمنةً، وصهره مؤمناً، هذا شيءٌ لا يعرفه إلا من فقده. فلذلك إذا أغري المال بعض الرجال فلا ينبغي للمؤمن أن يدع بلاداً تُقام فيها شعائر الله، يستمع فيها إلى مجالس العلم، يرى حوله أخوةً كراماً مؤمنين صادقين، يدع كل هذه النعم من أجل بعض مغريات المادة، هذه هجرة في سبيل الشيطان.

أيها الأخوة الكرام... حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنأخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هوها، وتمنى على الله الأماني.
والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولِي الصالِحِينَ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صاحب الخلق العظيم، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لِيَهَا الْأَخْوَةُ الْكَرَامُ... وَقَعَ تَحْتَ يَدِي كِتَابٌ فِي الْأَسْبُوعِ الْمَاضِيِّ، كِتَابٌ مَقْرَرٌ لِطُلَّابِ كُلِّيَّةِ الطِّبِّ، وَقَدْ طَبَعَتْهُ جَامِعَةُ دَمْشَقَ، هَذَا الْكِتَابُ حَوْلَ أَمْرَاضِ الْأَطْفَالِ، وَقَدْ أَفْتَهُ نُخْبَةً مِنْ أَطْبَاءِ الْأَطْفَالِ فِي هَذَا الْبَلَدِ الْطَّيِّبِ، وَلَكِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي كَدِتْ لَا أَصْدِقُهُ أَنْ فِي صَفَحَاتِهِ الْآخِيرَةِ تَحْتَ عَنْوَانَ "ظَاهِرَةُ الْطَّفْلِ الْمُضْطَهَدِ" أَيْ أَنَّ مِنْ جَمْلَةِ أَمْرَاضِ الْأَطْفَالِ حَالَةٌ صَعْبَةٌ جَدًّا اسْمُهَا الْطَّفْلُ الْمُضْطَهَدُ، يَقُولُ مُؤْلِفُ الْكِتَابِ: يَكْثُرُ وُجُودُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي الدُّولِ الْمُنْتَطَوِّرَةِ وَالْمُنْتَقِدَةِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي الْوَلَيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيْكِيَّةِ، حِيثُ يُوجَدُ الْعِدِيدُ مِنِ الْحَالَاتِ سَنْوِيًّا لِأَطْفَالٍ يَعْانُونَ مِنِ الْإِهْمَالِ الشَّدِيدِ، أَوْ يَتَعرَّضُونَ لِشَتَّى أَنْوَاعِ التَّعَذِيبِ - أَنَا أَفْرَا لَكُمُ النَّصَّ الْحَرْقِيِّ - وَمِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ نَادِرَةٌ جَدًّا فِي بَلَادِنَا، وَتَكَادُ تَكُونُ مَعْدُومَةً، وَهَذَا نَاتِجٌ عَنْ تِرَابُطِ الْأَسْرَةِ وَتِمَاسُكِهَا.

بِفَعْلِ الدِّينِ طَبِيعًا، بِفَعْلِ الإِيمَانِ، الإِيمَانُ مِنْ ثَمَارِهِ تِمَاسُكُ الْأَسْرَةِ، وَتِرَابُطُ الْأَسْرَةِ، وَالْأَسْرَةُ السَّعِيْدَةُ، وَهَذَا التِّمَاسُكُ يَنْفِي وُجُودَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ.

فَمَا هَذِهِ الظَّاهِرَةُ؟ يَقُولُ مُؤْلِفُ الْكِتَابِ: يَعْانِي الْطَّفْلُ عَادَةً مِنِ إِصَابَاتٍ مُخْتَلِفةٍ كَالْحَرْقِ - مِنْ قِبَلِ وَالْدِيَهِ - وَالْكُسُورِ، وَخَاصَّةً فِي الْعَظَامِ الطَّوِيلَةِ، وَالرَّضْوَضِ بِالْجَلدِ، وَضَرْبِ الْسِيَاطِ، وَخَلْعِ الْأَظْافِرِ، وَنَزْعِ الْلَّشْعَرِ مِنْ فَرْوَةِ الرَّأْسِ، وَخَرْقِ طَبْلَةِ الْأَذْنِ، وَكَسْرِ عِظَامِ الْأَنْفِ، وَالضَّرْبِ عَلَى الْعَيْنِ، وَيَتَرَاقِفُ هَذَا كَلِهِ بِنَزْفٍ خَارِجيٍّ أَوْ دَاخِليٍّ، مَمَنْ؟ مِنَ الْأُمِّ وَالْأَبِ.

طَفْلٌ صَغِيرٌ لَا يَتَجاوزُ عَمَرَهُ السَّنَتَيْنِ يَتَلَقَّى هَذَا التَّعَذِيبَ مِنْ وَالْدِيَهِ، وَيَتَعرَّضُ بَعْضُ الْأَطْفَالِ إِلَى إِهْمَالٍ مُتَعَمِّدٍ؛ فَيُحِرِّمُ مِنِ الْغَذَاءِ، وَالشَّرَابِ، وَاللِّبَاسِ، وَيُمْنِعُ مِنِ الْلَّعْبِ، وَيُحَبِّسُ طَوَالَ الْيَوْمِ، وَأَحيَانًا لِعْدَةِ أَيَّامٍ، وَيَحْرَقُ بِأَعْقَابِ السَّجَائِرِ وَالْمَاءِ الْمَغَلِّيِّ، وَيُعَنْدِي عَلَيْهِ جِنْسِيًّا مِنْ قِبَلِ أَهْلِهِ الْمَصَابِونَ بِالشَّذْوَذِ. ثُمَّ يَتَابُعُ مُؤْلِفُ الْكِتَابِ التَّشْخِيصُ الَّذِي يُؤكِّدُ وُجُودَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الْخَطِيرَةِ، ظَاهِرَةُ الْطَّفْلِ الْمَهْمَلِ.

قَلْتَ: سَبَّحَنَ اللَّهُ ! كَمْ نَحْنُ بَخِيرُ، كَمْ أَسْرَنَا بَخِيرُ، كَمْ الْعَطْفُ الَّذِي فِي قُلُوبِ الْأَبَاءِ عَنْدَنَا، كَمْ الْعَطْفُ الَّذِي فِي قُلُوبِ الْأَمْهَاتِ عَنْدَنَا، مَا أَرَوْعَ عَظَمَةً هَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ الَّذِي مِنْ ثَمَارِهِ هَذِهِ الْأَسْرَ الْمُتَمَاسِكَةُ، هَذِهِ الْأَسْرَ الْمُتَرَابِطَةُ، وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ:

((كُلُّ نَفْسٍ تُحَشِّرُ عَلَى هُوَا هَا فَمَنْ هُوَ يَكْفُرُ مَعَ الْكُفْرَةِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عَمَلُ شَيْئًا))

[كتن العمال عن جابر]

وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ:

((مِنْ أَقْلَامِ الْمُشْرِكِينَ فَقَدْ بَرَئَتْ مِنْهُ ذَمَّةُ اللَّهِ))

[ابن المنذر عن جرير بن عبد الله البجلي]

وَعَلَاقَةُ هَذِهِ الْقَصَّةُ بِالْهِجْرَةِ الْمُعاكِسَةِ، بِالْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ.

وجود الإنسان لا معنى له دون منهج يسير عليه :

أيها الأخوة الكرام... آية قرآنية لا تغيب عن ذهني، وهي قوله تعالى:
﴿الرَّحْمَنُ * عَلَمُ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَهُ الْبَيْانَ﴾

[سورة الرحمن : ٤-١]

أيعلم أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يخلق؟ لم يقل الله عز وجل: الرحمن خلق الإنسان علمه القرآن؟ في الإجابة عن هذا السؤال نجد أن ترتيب الآيات ليس زمنياً ولكنه ترتيب رتبي، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له دون منهج يسير عليه، فالمجتمع الغربي حينما ابتعد عن الدين، وابتعد عن ربّه، وحكم عقله في كل شيء، وبحث عن مصلحته ولو كانت ضيقة، وكان له قلب كالحجر، وفتاك بالضعف في العالم كله فتكاً تتدى له البشرية، هؤلاء انقطعوا عن الله، وحكموا عقولهم، واتجهوا نحو مصالحهم، فانعكس هذا على أسرهم، وعلى حياتهم الداخلية، أرأيت وحشية بعد هذه الوحشية؟ طبيب من أطباء دمشق اللامعين حدثي، كان طبيباً مناوياً في بعض مستشفيات أمريكا، قال لي: جاءتني في ليلة واحدة خمس عشرة حالة من الأطفال الذين ضربوا بالآلات حادة من قبل والديهم.

هذا الإنسان حينما يبتعد عن الله عز وجل يصبح كالوحش، ووحشية الإنسان المقطوع عن الله عليها أدلة تروتها وتسمعون بها كل يوم، وحشية ما بعدها وحشية، قسوة ما بعدها قسوة، قلب كالصخر ولكن الإيمان يهدّب المشاعر، الإيمان يملأ القلب رحمة، الإيمان يملأ العقل نوراً، الإيمان يملأ النفس إنصافاً، الإيمان يملأ الإنسان لطفاً ورقّة.

فيا أيها الأخوة الكرام... ليس هناك حل وسط، إما أن تكون مع الحق، فأنت مفعّم بالقيم الخلقية، وإما أن يكون الإنسان بعيداً عن الحق وهذا حاله.

الدعاء :

اللهم اهدا فينا هديت، وعافنا فيمن عافت، وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شرّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تبارك ربنا وتعاليت، ولك الحمد على ما قضيت، نستغرك اللهم ونتوب إليك، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك. اللهم أطعنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهوننا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارض عنا، اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتّعنا اللهم باسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحبيتنا، واجعله الوراثتنا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا. اللهم ول علينا خيارنا، ولا تولي علينا بذنبنا شرارنا يا رب العالمين. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا،

وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردّنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحتاً لنا من كل شر، مولانا رب العالمين. اللهم إنا نعوذ بك من الفقر، إلا إليك، ومن الخوف إلا منك، ومن الذل إلا لك، نعوذ بك من عُضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السُّلُب بعد العطاء مولانا رب العالمين. اللهم اكفنا بحالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عن سوالك. اللهم استر عوراتنا، وآمن رواعتنا، وآمنا في أوطاننا، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخيماً وسائراً بلاد المسلمين. اللهم اكتب الصحة والسلامة للحجاج والمسافرين، والمقيمين والمرابطين، في برّك وبحرك من أمّة محمد أجمعين. اللهم يا أكرم الأكرمين أعطنا من كل خيرٍ سألك منه النبي عليه الصلاة والسلام، اللهم بفضلك ورحمتك أعل كلمة الحق والدين، وانصر الإسلام وأعزّ المسلمين، وخذ بيده ولاتهم إلى ما تحب وترضى، إنك على ما تشاء قادر، وبالإجابة جدير.

والحمد لله رب العالمين